أعلام من الغرب الإسلامي:

القاضي عياض

الشخصية، والدور الثقافي

(٤٧٦ / ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ / ١١٤٩م)

د. محمد الكتاني

البيئة والعصر

تلتقي في شخصية القاضي عياض ثلاثة رموز يكفي الواحد منها لتخليد ذكره، فكيف بها مجتمعة. فهو أولا وجه من وجوه الثقافة المغربية، وهو ثانيا علم من أعلام الثقافة في المغرب الإسلامي في القرنين الخامس والسادس، بما كان يعنيه الغرب الإسلامي من بلاد الأندلس وإفريقية والمغرب. وهو ثالثا وجه متميز من وجوه الثقافة الإسلامية بعامة حتى نهاية القرن السادس الهجري في مشرق العالم

الإسلامي ومغربه . وبهذه الأبعاد الثلاثة لشخصية عياض تكونت حول شخصيته ثلاث دوائر متداخلة ذات محور واحد تتفاوت في الاتساع والشمول، ولكنها لا تختلف في العمق والجوهر الذي تشير إليه . وهو تمثيلها للثقافة الإسلامية المغربية في عصره .

ولعله الوجه الأول في الثقافة المغربية من حيث البروز والظهور، لأننا لا نعرف في تاريخ تلك الثقافة شخصية قبله اشتهرت شهرته، وحققت من التفوق والتأثير ما حققه عياض . فقيل بحق: «لولا عياض لما عرف المغرب» . وكأنهم يعنون بذلك، في جملة ما يعنون أنه أول من لفت نظر علماء المشرق إلى علماء المغرب حتى أواسط القرن السادس الهجري .

وقد يكون هناك من علماء المغرب قبل عياض من ألم بكل معارف وعلوم الثقافة الإسلامية على نحو ما ألم به عياض ⁽¹⁾، ولكن أحدا منهم لم يكن متوفرا على مواهبه وقدرته على الزعامة الفكرية، وعلى منهج الترتيب والتصنيف والتحصيل .

ومعنى الزعامة الفكرية يحيلنا إلى الإطار التاريخي الذي يتصل بتكوين عياض الثقافي وبالتيارات السائدة في عصره، ويقفنا على حقيقة أساسية في شخصيته، وهي كونه كان قيما على العقيدة السنية وعلى المذهب المالكي في الغرب الإسلامي بما تفرضه هذه القوامة من زعامة وجرأة وعلم واطلاع . وسنرى مظاهر هذه القوامة أو الزعامة الفكرية فيما بعد . وأول ما تجب الإشارة إليه في هذا العرض هو ضرورة تحديد الدراسة والبحث في شخصية عياض لكونها تعكس بصدق بعدين أساسيين في ثقافة العصر المرابطي، وهما البعد الديني والبعد الأدبي . لأن

القاضي عياضا يظل إلى جانب كونه فقيها ومحدثا بالدراجة الأولى، مرجع الحكم على عصر المرابطين من حيث التقويم الأدبي. ذلك العصر الذي تعرض لتعتيم تاريخي مقصود. وربما تعرض لإتلاف آثاره ومحوها من جانب خصوم المرابطين، إلى جانب حملات العصبية على المغرب كالذي نجده عند الشقندي (٦٢٩) (٢). فحديث المؤرخين عما عرفه عصر المرابطين أو بلاط المرابطين من وفود العلماء والأدباء (٣) وما كانوا يجدونه من تشجيع وتقدير وتجاوب مع أمراء المرابطين لا يتناسب مع الصورة الهزيلة عن الحياة الأدبية لهذا العصر. وقد يكون وراء التفاوت الكبير بين الحياة الثقافية في الأندلس، وبين الحياة الثقافية في المغرب حتى عهد المرابطين أسباب موضوعية لا سبيل لعرضها الآن هي التي مكنت البيئة الأندلسية من التفوق على البيئة المغربية يومئذ، مما تعكسه مصنفات جليلة القدر كقلائد العقيان للفتح بن خاقان (٥٢٩) والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (٥٤٢) والمغرب في حُلى المغرب لابن سعيد (٦٨٥). ولكن هذا التفاوت يظل موضوع تساؤل من جانب الباحثين الذين لم يقتنعوا بما أشاعه خصوم المرابطين عنهم من تزمت ديني وجمود فكري تواطأ فيه الفقهاء مع الأمراء.

وربما كان المسؤول عن ذلك التعتيم التاريخي هم مصنفي القرنين السادس والسابع من أشياع الموحدين، الذين ضخّموا مواقف الفقهاء المالكيين والأمراء المرابطين من حركة التصوف التي كانت سائدة في شرقي الأندلس وشمالي المغرب، ومقاومة هؤلاء للحركة الغزالية كما نفهم من عبارة ابن القطان(٦٢٨)(٤).

من أجل ذلك كله تجدر العودة إلى دراسة العصر المرابطي من خلال أعلامه

وفي مقدمتهم القاضي عياض لما تنطوي عليه حياتهم وأعمالهم من دلالات وشهادات تضع ذلك العصر في سياقه الطبيعي من تاريخ الثقافة المغربية .

— ٢ —

أما عن البيئة التي نشأ فيها عياض فهي بالتحديد الجغرافي مدينة سبتة هذه المدينة التي كانت بمثابة صلة وصل بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه كما كانت جسرا ممدودا بين المغرب والأندلس (٥) وكانت من أجل هذه الأهمية الجغرافية في التواصل بين الأطراف منطقة تنافس سياسي، فهي تنتقل دوما من حكم المغلوب إلى حكم الغالب في صراع كالح لم يتوقف بين القوى السياسية في المغرب والأندلس . وهذا الموضع الخاص أتاح للمدينة مناخا متفتحا قابلا لامتصاص المؤثرات الثقافية المختلفة . ولذلك كان علماء سبتة ورجالها يتمثلون الثقافة المشرقية والمغربية والأندلسية في مزاج متميز لا يمكن تبيُّن عناصره، ولا إنماؤه لرافد واحد من تلك الروافد الثقافية القومية المختلفة .

وهو نفسه المناخ الثقافي الذي كان يتيح لرجال سبتة وعلمائها التميز والظهور عندما يتجاوزون التحصيل والتمثيل الثقافي إلى الإبداع والتحقيق والتنظير والانتقاء، كما وقع لعياض . ففي حين كان الشرق الإسلامي يعرف التعددية المذهبية والمذاهب المتطرفة، في الفقه وعلم الكلام والإمامة والسياسة، وفي حين كانت الأندلس نفسها تموج بتيارات التصوف الأفلاطوني والفلسفة المشائية إلى جانب المذاهب السنية المعروفة، ظل علماء المغرب، وفي مقدمتهم علماء سبتة ، في موضع التمثل والانتقاء لا يندفعون وراء التيارات والمقولات بقدر ما يوازنون وينتقون، وكأن الوحدة السياسية والعقلية هي الهاجس الأكبر الذي يشغلهم . ولذلك اعتمدوا المذهب السني . وكان عياض في تمثله لهذا المذهب، وفي

تأصيله والدفاع عنه، وتوسيع المعرفة به النموذج الذي احتذى حذوه جل علماء المغرب بعده.

وكتب عياض كلها دالة على الانتقاء والتلخيص والتنظير والتأصيل للمذهب السني، معرفة وسلوكا وتطبيقا للأصـول. وفي مقدمتها (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) و(الإعلام بحدود قـواعد الإسلام) و(الشفا بتعريف حقوق المصطفى) (٦).

— ٣ —

الترجمة والتكوين الثقافي

هو القاضي عيـاض، وكنيته أبـو الفضل، ابن مـوسى اليحصبـي السبتي، يرقى في نسبه إلى إحـدى قبائل اليمن العربية القحطانية حيث يجتمع مع نسب الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام المدينة المنورة، وصاحب المذهب المشهور. وكان أسلاف عياض قد استقروا أولا بمدينة بسطة الأندلسية BAZA من نواحي مدينة غرناطة. ومنها انتقلوا إلى مدينة فاس بالمغرب. ثم انتقل جده عمرون منها إلى مدينـة سبتة حوالي سنـة ٣٧٣هـ، فاشتهـرت أسرته بسبتـة لما عرفت بـه من الصـلاح وإسـداء المعروف. وبهذه المدينـة ولـد عيـاض سنة ٤٧٦هـ، ونشـأ وتعلم، وتتلمذ على شيوخها. وعندما استـوفى من المعرفة ما استوفى على أيديهم رحل إلى الأندلس بعد أن تجاوز سنّه العشرين.

وتذكر الروايات أنه رحل إلى الأندلس سنة ٥٠٧هـ = ١١١٣م، ليستزيد من السماع وتوثيـق الأسانيـد وتحقيق الروايـة، في حين نجد عياضـا يذكـر في كتاب (الغُنية) أنه لقي شيخه ابن الأخضر الإشبيلي بـإشبيلية سنة ٤٩٨هـ، وأنه تلقى

عنه حينئذ شرح الأشعار الستة للأعلم الشنتمري . وشيخه هذا هو الذي تلقى شرح تلك الأشعار عن الشنتمري نفسه (٧) .

وقد طوف عياض بحواضر الأندلس التي كانت معروفة بشيوخها ورجالاتها أمثال غرناطة ومرسية وقرطبة و إشبيلية . ولم يثبت عنه أنه رحل إلى المشرق قط ، بل اكتفى بما جصله على يد رجال العدوتين أمثال إبراهيم بن جعفر اللواتي (ابن الفاسي) (٨)، وأبي العباس أحمد بن قاسم الصنهاجي ، وأبي علي الحسين الصدفي، (٩) والحسين الكلاعي الصفاقسي ، والحسن بن طريف النحوي السبتي ، والقاضي أبي بكر بن العربي الإشبيلي ، والقاضي محمد بن علي بن حمدين القرطبي ، والقاضي أبيي الوليد بن رشد ، وابن أبي جعفر الخُشني وغيرهم من الأعلام . (١٠)

وعاد عياض إلى سبتة غزير العلم ، عالي الإسناد والتوثيق ، جامعا ما تفرق من المعارف في صدور الرجال ، فاتجهت إليه الأنظار في الفتوى والمشورة والمناظرة والتدريس . وتقلد منصب القضاء بها سنة ٥١٥هـ ــ ١١٢١م ، فبقي في هذا المنصب ستة عشر عاما . حيث ولي قضاء غرناطة بعد ذلك سنة ٥٣١هـ . ولكنه ما لبث أن عاد إلى مسقط رأسه سبتة ليتقلد منصب القضاء سنة ٥٣٩هـ

ولكي نلم بالعوامل التي مكنت عياضا من احتلال المكانة المرموقة في خدمة الثقافة الإسلامية والمذهب السني الأشعري عقيدة ، المالكي فقها ، لا بد من التذكير بكون القاضي عياض عاصر الدولة المرابطية في المغرب إلى سقوطها ، كما عاصر ثورة المهدي بن تومرت (٥٢٤) عليها وقيام الدولة الموحدية على أنقاضها .

أما الدولة المرابطية (٤٣٠ ـ ٥٤١هـ = ١٠٣٨ ـ ١١٤٧م التي عاش عياض الشطر الأكبر من حياته في عصرها فقد قامت على أساس ديني من دعوة عبدالله ابن ياسين للعودة إلى صحيح العقيدة ومحاربة البدع والفساد والانحراف .

وقد عملت هذه الـدولة بعد استتباب الأمر لها على تثبيت المذهب المالكي . فلا عجب أن يحتـل الفقهاء في ظلها مناصب القيادة والتـوجيه ، وأن تصبح لهم السلطة النـافذة على الجماهير وعلى الحكـام ، وأن يتحول هـذا النفوذ إلى سلطـة (إيديولوجية) يلقى المخالفون لها عنتا كبيرا .

وأما الدولة الموحـدية (٥٤١ ـ ٦٦٨هـ ــ ١١٤٧ ـ ١٢٦٢م) فقد قامـت هي أيضا على أساس دعوة دينية ، ولكن من منظور آخر ، وهو تحرير الفكر من جمود الفقهـاء ومن تحجيرهـم عقـول الناس في إدراك مفـاهيـم العقيدة ، والعـودة إلى القرآن والسنـة بدل الانشغـال بالفروع التـي أصبحت عماد الـدراسة والتلقين . ولـذلك طعـن القـائمـون بالثـورة على المرابطين في عقيـدتهم وعقيـدة فقهائهـم باعتبارهم مـن المشبهة . وحاول الخليفة يعقوب الموحدي إزالـة المذهب المالكي من المغرب بالمرة . (١١)

هذه المعـاصرة للدولتين مـن جـانب عيـاض طبعت حيـاتـه وأثرت في نهايـة المطاف على مـوقفه السيـاسي من السلطـة القائمـة في فترة الصراع بين المرابطين والموحدين . وأنهت حياتـه تلك النهاية المحزنة مغرّبـا عن سبتة ، وربما كان وراء موته في الطريق نحو مراكش ما عجل بوضع حد لحياته .

المهم أن مدينة سبتة لم تخضع للموحديـن إلا بعد جهاد طويل ، واستماتة من جـانب أهلهـا في الدفـاع عنها مـن ناحيـة ، وبـلاء شديـد من جـانب جيـش الموحدين وأسطـولهم من ناحية ثـانية . واستسلمت المدينة ، ثـم عادت للثورة .

وبايع القاضي عياض باسم أهل مدينة عبد المؤمن بن علي، ثم غير موقفه في البيعة فيما يظهر مع السّبتيين. ولما لم يجد محيصا عن الاستسلام كأهلها للموحدين قدم عليهم مرة أخرى بالبيعة. ومن غير شك كان عياض يشهد استعلاء سلطة جديدة كانت ستدمر كل شيء في نظره، ولا سيما المذهب السني الذي كان رمزا من رموزه البارزة في الغرب الإسلامي. ولذلك كان لا بد من أن يناهض تلك السلطة الجديدة ولو على مستوى الثقافة والفكر. وأن تلجئه الظروف السياسية إلى الدخول في مضايقها. وهذا ما يحتاج إلى بحث مستقل ودراسة موثقة. (١٢)

— ٤ —

شخصية عياض العلمية والأدبية

نتصفح حياة القاضي عياض العلمية فنجدها حياة حافلة، موزعة بين القضاء والإقراء والتأليف. وننظر في مصنفات عياض وتراثه فنجده موزعا بين الحديث والفقه والتاريخ والأدب.

أما في الحديث فقد كان فيه العَلم المتميز بالحفظ والرواية والدراية والتحقيق. قالوا عنه إنه كان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين، عالما بالحديث، عارفا بطرقه، حافظا لرجاله، حتى جمع من سعة الرواية ما لم يجمعه أحد في زمانه، حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها. (١٣)

وهذه التحلية من جانب علماء المشرق والمغرب تعني الكثير من الشروط الدقيقة التي كان يجب أن تتوافر لعالم الحديث، وتعني كون عياض قد مثلها وحققها فهو من ناحية أولى قد رحل في طلب الإسناد، ونجده، من ناحية

ثانية، قد حقق من علو الإسناد والسماع من الشيوخ، والضبط والإتقان لمروياته في كتابه (الغنية) (١٤) ما لم يتحقق لغير القليلين من العلماء، حيث ترجم لنحو مائة شيخ، وحيث نص على أسانيده العالية والمتعددة لكتب الحديث الأمهات، وهي صحيح البخاري، وصحيح مسلم والموطأ. وحيث كانت الرواية المتصلة بالسماع والتحديث شيخا عن شيخ إلى منتهاها من الصحابي هو أثمن ما يطلبه المحدث ويرجو تحقيقه. وكانت المزية التي لا تعدلها مزية في الرواية المتصلة السماع والتحديث، أو القراءة والإجازة، هي قلة الوسائط في سلسلة السند أو قلة المسندين بحيث يفخر العالم بكونه يسند روايته إلى أقل عدد من الرجال الذين سمعوا الحديث وحدثوا به عن رسول الله ﷺ، قال عياض: «حدثنا شيخنا القاضي الشهيد/ الصدفي «رحمه الله»، قال: سمعت الإمام أبا محمد التميمي يقول بسند لا أذكره إن أبا القاسم البغوي حدث يوما فقال: حدثنا طالوت، حدثنا فضال بن جبير عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ، فقام رجل من خراسان، فقال: «أسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟ طالوت عن فضال عن أبي أمامة. قال القاضي أبو الفضل رضي الله عنه وعن سلفه: «ولا يستغرب مثل هذا فقد حصل لنا الموطأ بنحو هذا السند أو قريبا منه في العدد، فإن شيخنا أبا عبد الله بن غلبون (١٥) أخبرنا به عن أبي عمرو عثمان بن سعيد عن أبي عيسى عن عبيد الله عن يحيى بن مالك. فبين شيخنا وبين النبي ﷺ، في كثير من حديثه سبعة رجال» (١٦).

هذا الخبر يدل على المغزى في طلب الإسناد العالي، والتقليل من حلقات الشيوخ في السند، والقيمة العلمية التي ينشدها المحدث في تحقيق مثل هذا

السند، عندما يروي عن عالم يروي عن عالم إلى أن ينتهي الأمر إلى مؤلف الكتاب الذي هو موضوع الرواية.

وخير مثال على ذلك في حياة القاضي عياض حرصه على طلب السماع والتحديث من العالم الحافظ المتقن الحجة في عصره، وهو القاضي أبو علي الحسين بن محمد الصدفي المعروف بابن سكرة (٥٠٨) الذي ألف عياض في شيوخه كتاب (المعجم) في ذكر أبي علي الصدفي وأخباره وشيوخه. وقال عنه في (الغنية) إنه وصل إلى المشرق فلقي شيوخ إفريقية ومصر والحجاز والعراق والشام. واتسعت روايته فكان بمثابة حلقة واصلة بين سلاسل السند والتحديث والإجازات بين علماء المشرق وعلماء الأندلس والمغرب، فلقاء عياض به والأخذ عنه مباشرة، والقراءة عليه، والسماع عليه للكتب الأمهات في الحديث والرجال وغيرها، يعدّ بمثابة جامعة تصل بين الأجيال والعلماء والمناهج، أما من لم يلقه عياض من العلماء ولم يسمع منه مشافهة فقد كتب إليه، وأخذ الإجازة عنه للرواية بها روى عنه كما فعل مع الشيخ أبي سعيد حيدر ابن يحيى الجيلي (٥٣٠)(١٧).

وهكذا لم يكتف عياض بحفظ كتب الصحاح والسنن، ومعرفة الرجال، ونقد الأسانيد، وتحقيق المتون، وإنما طلب تحقيق إسناده الخاص لكتب الحديث وعلى رأسها صحيح البخاري ومسلم والموطأ. فكانت له أسانيده الخاصة لكتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس من رواية أبي محمد يحيى الليثي المصمودي، ذكرها في كتاب (الغنية) وكتاب صحيح البخاري. وكانت له طرقه المتعددة في الرواية تجتمع كلها حول رواية الفربري (أبي عبد الله محمد بن يوسف الفربري - ٣٢٠)(١٨) ورواية النسفي (إبراهيم بن معقل النسفي - (٢٩٥)(١٩) لصحيح

البخاري، بحيث تنتهي طرقه بالسماع شيخا عن شيخ إلى هذين المحدثين اللذين تلقيا مباشرة من الإمام البخاري. وكذلك الشأن في روايته لصحيح مسلم.

وكان منهج عياض في الرواية يقوم على التحقيق والتدقيق، والتوثيق للمتن. ويعدّ النقل والرواية هما الأصل في إثبات الحديث وتصحيحه، إذ لا تتصور دراية بدون رواية، ومن أجل ذلك تشدد في قضية النقد للمتن، والتأويل للّفظ والحديث، والرواية بالمعنى، وما يفتح ذلك من أبواب الخلاف. وطالب المحدث بأن ينقل ما سمعه ووعاه كما سمعه ووعاه، وأنه حتى مع انتقاده لما سمعه يتعين إيراده كما سمعه والتنبيه على ما فيه كي يجمع بين الحسنيين: رواية الحديث كما سمع. وبيان ما يعن له من تصويب فيه، دون قطع بالرأي يفضي إلى الجسارة على الحديث التي قد تحمل صاحبها على التغيير والتصرف فيه بالرأي.

ويعدّ كتاب عياض (الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع) من الكتب المنهجية التي تعكس صدى حرصه على التوثيق والتحقيق كما كان كتابه العظيم (مشارق الأنوار على صحاح الآثار) من أدل الكتب على سعة ثقافة عياض الحديثية وقدرته على الضبط والمقارنة والفهم والتنبيه إلى مواطن الخطأ والوهم والزلل والتصحيف. وهو كتاب يكشف لنا عن مدى ما وقع فيه المتقدمون عليه من أوهام وأخطاء. فقد ضبط عياض في هذا الكتاب ما التبس أو أشكل، وشرح فيه ما غمض أو أبهم، وحرر فيه ما وقع فيه الإختلاف، أو تصرف فيه الرواة بالخطأ والتوهم في السند أو في المتن. وذلك بالنسبة لأصول الحديث الثلاثة وهي الجامع الصحيح للبخاري، والمسند الصحيح لمسلم، وموطأ مالك

ابن أنس. حتى لا يبقى أمام طالب العلم إشكال في الأصول، وحتى يستغني بهذا الكتاب عن الرحلة في طلب التحقيق (٢٠). وقد قال عنه الشيخ عبد الحي الكتاني، إن هذا الكتاب قد اتخذه علماء المشرق والمغرب في الحديث من الحفاظ والعلماء خير دليل للاهتداء في حل مشاكل الصحيحين والموطأ، أعجز به من بعده، واستدرك به على أكثر من قبله من الأئمة والحفاظ. (٢١)

هذان الكتابان في علوم الحديث ومنهجية الرواية والتحقيق والنقد للمتن والسند مفخرة وحدهما للمغرب وللغرب الإسلامي، بحيث يقف عياض بفضلهما إلى جانب الأئمة الكبار أمثال البخاري، ويقرن بفضلهما أيضا بالعلماء الأثبات كابن الصلاح والعراقي والزركشي وابن حجر والسيوطي والسخاوي وأمثالهم.

-٥-

عياض الفقيه

وأما في الفقه فلمعرفة مكانة القاضي عياض منه، ودوره في تأصيل المذهب المالكي بالمغرب واجتهاده فيه أو تقليده، يحسن بنا وضعه في سياق تطور الفقه الإسلامي، ومنشأ هذا العلم ومنهجية الأخذ منه والتفريع على أصوله وأحكامه. قال ابن خلدون في المقدمة: : «الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة. فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه.

وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم، ولا بد من وقوعه ضرورة (يعني الاختلاف) لأن الأدلة غالبها من النصوص، وهي بلغة العرب، وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف، و أيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت، وتتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج إلى الترجيح. وهو يختلف أيضا، فالدلالة من غير النصوص مختلف فيها، وأيضا فالوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص. وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيحمل على المنصوص لمشابهة بينهما، وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم.

- ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه، ومتشابهه ومحكمه، وسائر دلالاته بما تلقوه عن رسول الله ﷺ، أو ممن سمعه منهم، وكانوا يُسَمَّوْنَ لذلك القراء، أي الذين يقرءون الكتاب، لأن العرب كانت أمة أمية فاختص منهم من كان قارئا للكتاب بهذا الاسم، وبقي الأمر كذلك صدر الملة، ثم عظمت أمصار الإسلام، وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط، وكمل الفقه، وأصبح صناعة وعلما، فبدّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء. وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق. وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز.»(٢٢)

- فأما أهل العراق فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم أبو حنيفة النعمان ابن ثابت، ومقامه في الفقه لا يلحق. شهد له بذلك أهل جلدته وخصوصا مالكا والشافعي. وأما أهل الحجاز فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة.. واختص بزيادة مدرك آخر للأحكام غير المدارك المعتبرة عند غيره

(يعني القياس والإجماع) (٢٣) وهو عمل أهل المدينة لأنه رأى أنهم فيما يتفقون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم . . . وهكذا إلى الجيل المباشرين لفعل النبي ﷺ، الآخذين ذلك عنه، وصار ذلك عنده من أصول الأدلة الشرعية، وظن كثير أن ذلك من مسائل الإجماع فأنكره (وليس كذلك). لأن دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة . . بل هو شامل للأمة. واعلم أن الإجماع إنما هو الاتفاق على الأمر الديني عن اجتهاد. ومالك رحمه الله لم يعُدَّ عمل أهل المدينة من هذا المعنى، وإنما عده من حيث اتباع الجيل بالمشاهدة للجيل إلى أن ينتهي إلى الشارع ﷺ (٢٤).

ـ وبعد أن يتحدث ابن خلدون عن بقية المذاهب وأئمتها يعود إلى مواطن انتشار تلك المذاهب ويقول عن المغرب:

ـ وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل . . .

ـ وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله، وكان تلاميذه قد افترقوا بمصر والعراق . . . وكان بمصر منهم ابن القاسم (٢٥) وأشهب (٢٦) وابن عبد الحكم. (٢٧)

ـ ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب (٢٨) فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبث مذهب مالك في الأندلس ودون كتاب (الواضحة).

وكان أسد بن الفرات (٢١٣) وهو عالم من خراسان، نشأ في تونس وتعلم بها بعد أن هاجر إليها أبوه من المشرق. قد رحل إلى المشرق في طلب العلم فسمع من مالك موطأه، وذهب إلى العراق فأخذ عن أبي يوسف ومحمد صاحبي الإمام

أبي حنيفة، وكتب في ذلك ما كتبه ولا سيما عن صاحب الإمام مالك عبد الرحمن بن القاسم، وجاء إلى القيروان بعلم غزير، ودوّن كتابه الذي اشتهر بالنسب إليه (الأسدية). فأخذ طلاب العلم يتلقونه عنه. ومنهم عبد السلام ابن سعيد المشهور بسحنون (٢٤٠)، إلا أن هذا الأخير ارتحل في طلب المزيد من العلم إلى المشرق فلقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارض ما تلقاه عن أسد بن الفرات في (الأسدية) بما تلقاه عن ابن القاسم الذي هو مصدر أسد بن الفرات فحقق المسائل وحررها، ومنها ما كان ابن القاسم نفسه قد رجع عنه وكتب لأسد بن الفرات نفسه أن يأخذ عن سحنون باعتباره قد وضع المسائل كلها في قالبها المذهبي الصحيح. ودوّن ذلك كله الإمام سحنون في كتاب اشتهر (بالمدوّنة)، فعكف علماء إفريقية عليها درسا وتحليلا، كما عكف أهل الأندلس على (الواضحة) لابن حبيب و(العتبية) لمحمد بن أحمد العتبي (٢٥٥).

ويظهر أن عمل سحنون كان عظيما وأساسيا في صياغة المذهب المالكي لأنه بوب مدونته. وعزز كل الأحكام بالأحاديث والآثار التي تعد أصلا حتى بلغت تلك الأحاديث ٤٠٣٦ حديثا، رواها سحنون عن ابن وهب في أغلب الأحوال، أو غيره من أئمة العلم كابن مهدي وإبراهيم النخعي. واشتهرت (المدونة) فأصبحت مرجع الفقه المالكي غير منازع. وكتبت عليها الشروح والمختصرات والحواشي والطرر والتعاليق. وحفظها العلماء كمتن لا غنى عنه. لكنها برغم ذلك كانت تعكس المرحلة الأولى من التصنيف العلمي في الفقه، أي مرحلة الجمع والتدوين وحشد المسائل في أكثر من باب وموضوع. ولذلك كانت تسمى المدوّنة والمختلطة. وقد جاءها الاختلاط من اضطراب التبويب وتداخل المسائل المختلفة في الباب الواحد، ومن عدم إحكام وضع الآثار مع

المسائل الفقهية . والتكرار للموضوع الواحد .

وعندما درس القاضي عياض كتاب المدونة على شيوخه بسبتة لاحظ هذا الاختلاط، والتداخل واختصار المتن إلى كثير من الإضافات المتعلقة بالآثار والأعلام. وقد درس عياض المدونة على أكثر من شيخ وتلقى نصها من عدة أسانيد. ووقف على مختصراتها، وكان مؤهلا لإنجاز عمله في مجال تحرير رواياتها، وتسمية رواتها، وشرح غامضها، وضبط ألفاظها. وهو ما صنعه في كتابه (التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة (٢٩)).

وقد قام عمله فيها، كما قلنا، على تصحيح الروايات وضبط الأسانيد لبعض الآثار المروية التي لم يحرص مدونها على تسمية رجالها وتدقيق سندها. بل كان عمل عياض في شرح ألفاظها الاصطلاحية - وهي الألفاظ الفقهية التي كان لها معنى لغوي فحدده الشرع بمعان خاصة - عملا جد مفيد في هذه المرحلة من ازدهار الفقه المالكي.

وتظهر شخصية عياض الفقهية في كتابه (التنبيهات) في مسائل الخلاف والمسائل الأصولية، أما المسائل الخلافية فيقف منها عياض موقف المقلد في معظم الأحيان للمذهب المالكي. ولكنه يجتهد في تلخيصها وبيان أصولها. وقد حصر بعض الباحثين المسائل التي اجتهد فيها عياض، وخالف فيها الإمام مالكا، وهي إحدى وثلاثون مسألة، ولم يخالفه فيها إلا باستدلال وبرهان قام عنده مقام الحجة على رأيه. منها أن الجنب يباح له قراءة القليل والكثير من القرآن، لأن الطهارة إنما ذكرها الله تعالى شرطا في مس القرآن لا في تلاوته.

وأما المسائل الأصولية فنجدها متفرقة في معارض من تعليقاته المتعلقة بتعليل الحكم أو بيان وجه الحجة فيه.

كما تظهر شخصية عياض الفقهية وتأصيله للمذهب المالكي بالمغرب في كتابه (ترتيب المدارك) الذي هو أكبر موسوعة عن رجال المذهب وأسانيد الرواية للموطأ ورواته وعلمائه ، وبيان مناقب الإمام مالك وفضله ، ونجاعته في الرأي ، وتوازنه ومواهبه ، وسعة علمه وهيبته ، وجلال قدره بين أصحابه ومريديه .

عياض الأديب:

وبرغم كون التكوين العلمي في المغرب في عصر عياض كان معنيا بالعلوم الدينية بالدرجة الأولى ، لأن الغاية التي كان يسعى العالم لتحقيقها هي تحقيق رتبة الفقيه المحيط بدقائق المذهب العارف بعلوم الحديث رواية ودراية ، المتمكن من علوم العربية من أجل التبريز في العلوم النقلية ، برغم هذا التكوين العلمي السائد يومئذ فإن القاضي عياض قد مكن لملكته الأدبية ومواهبه المتعددة أن تظل حاضرة مشرقة من خلال تصانيفه الدينية نفسها . فملامح الأديب الناقد الكاتب البليغ والشاعر تطل علينا من خلال آثاره شاهدة على ما كان لعياض من مشاركة في حقل الأدب والنقد .

ولنا أن نقول إن الأدب في المغرب حتى مشارف العصور الحديثة لم يكن يدرس لذاته ، وإنما كان يدرس كعلم من علوم اللغة التي يتوسل بها إلى فهم الكتاب والسنة ، والاستنباط للأحكام وتحقيق الدراية لكل النصوص الشرعية التي هي مصدر الثقافة الإسلامية . وذلك على خلاف ما كان يتم في المشرق الإسلامي ، حيث نرى كثيرا من الأعلام قد جعلوا من اللغة والأدب وما يتصل بهما من معارف وعلوم مجال تخصصهم .

وقد كان من الممكن أن يستغني الأديب الناقد اللغوي عن تعمق العلوم النقلية ، لكنه لم يكن ممكنا أن يستغني الفقيه العالم بالكتاب والسنة عن علوم

اللغة ورواية الأدب . وهذا ما نطبقه على كثير من رجالات العلم في المغرب والأندلس على حد سواء . فإن صادف التكوين اللغوي الأدبي مواهب ذاتية في العالم أتاح له المشاركة في ميدان الأدب بحظ يقل أو يقوى حسب الدواعي المحفزة للإبداع والإنشاء . وإن لم يصادف كانت الثقافة الأدبية مجرد ثقافة أساسية تمكن صاحبها من تأسيس ثقافته النقلية أو الدينية على أساس لغوي متين .

والقاضي عياض من تلك الشخصيات التي كانت موهوبة ، فمكنتها الثقافة الأدبية واللغوية من توجيه موهبتها نحو الإبداع والإنشاء والنقد . برغم استغراق الفقه والحديث لهذه الشخصية استغراقا طغى على كل ما عداه . فهو من هذه الناحية نموذج للعالم المغربي الذي كان يجمع بين التكوين الأدبي والتكوين الديني تكوينا يساعد كلا من الإختصاصين على تعميق أصوله ونظرته . وهو نموذج للعالم الفقيه المحدث الذي لم يستطع اختصاصه أن يسكت الصوت الأدبي في نفسه وتأليفه ، أو يغطي على إشراق الموهبة وسطوع آثارها . ويظهر ذلك بقوة في أسلوبه وترسله وشعره ، وفي بعض كتبه التي كانت تقوم أساسا على المادة الأدبية وتذوق الأساليب وفن النقد الأدبي .

وقد يقال : لو كان عياض على هذه الحظ من وفرة الموهبة الأدبية لكان له أن يبرّز في الأدب ويصنف فيه علينحو ما كان عليه أئمة الأدب والنقد والبلاغة في المشرق أو في الأندلس ، لكنه لم يكن بحكم نزعته ومؤهلاته ليغالب طبيعته كفقيه ومحدث حافظ متمكن من علوم الرواية والنقل . وما دام الأدب لم يستأثر بنفسه ويوجهها الوجهة الأدبية المبدعة الخالصة فلم يكن الأدب سوى نزعة خافتة ، ولون باهت إلى جانب الألوان القوية في تشكيل شخصيته .

والواقع أن تأمل آثار عياض ما كان منها يخص الأسلوب والسبك والصياغة وما كان يخص منها المضمون والرواية الأدبية والنظرات النقدية، يفضي لا محالة إلى نتيجة ملزمة وهي أن القاضي عياضا كان أديباً كبيرًا، فلنقف إذن على تكوينه الأدبي:

درس عياض كتب الأدب الأمهات وكتب اللغة الأساسية على يد كبار الشيوخ. تلقى عنهم ذلك بالسند الموصول من شيخ إلى شيخ سماعا و إجازة إلى مصنفي تلك الكتب أنفسهم.

فذكر في (الغنية) من تلقى عنهم دراسة (الكامل) للمبرد بمختلف أسانيد الدارسين إلى المبرد نفسه. وهم الأديب الراوية محمد بن سليمان النفزي (٣٠)، درس عليه الكتاب بقرطبة، والأديب محمد بن البراء الجزيري، والحسن بن علي ابن طريف النحوي التاهرتي. (٣١)

وعلى يد هذا الشيخ درس عياض كتبا أخرى مثل كتاب (الجمل) للأسحاق الزجاجي، و(الكافي) لأبي جعفر النحاس و(أدب الكتاب) لابن قتيبة و(الإيضاح) للفارسي، و(فصيح الكلام) لثعلب، وكتاب (الأمالي) لأبي على القالي.

وعلى يد الشيخ الأول (النفزي) درس أيضا كتاب إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت بالسند العالي إليه، وكذا كتابه (الألفاظ).

ودرس شرح ديوان الحماسة، وشرح شعر حبيب الطائي على النحوي والأديب الإشبيلي علي بن عبد الرحمن التنوخي المعروف بابن الأخضر (٥١٤) وهناك كتب أخرى، من غير شك، كانت من أصول التكوين الأدبي واللغوي انكب عليها عياض وحرص على تلقيها بعد ذلك بالسند المتصل عن شيوخ الأدب واللغة

الذين تلمذ لهم في سبتة، أو طلب السماع عنهم، والإجازة بحواضر الأندلس حين رحل إليها . ونعود إلى مظاهر «الأدبية» عند عياض فنرجعها، كما سلفت الإشارة، إلى أسلوبه في كتبه ورسائله، وإلى مضمون تلك الكتب والرسائل، فضلا عما روي له من شعر.

فالقاضي عياض أديب بليغ لا يقل طبقة عن كبار الكتاب الذين عرفهم الشرق، أو عرفتهم الأندلس قوة سبك وبراعة صياغة، ومحكم أسلوب. فأسلوبه جزل، محكم اللفظ، دقيق التعبير، بليغ التصوير، قوي الحجة، خفي الصنعة كما يظهر لنا ذلك في كتابه (ترتيب المدارك) أو كتاب(الشفا) .

ونبدأ بشعر القاضي عياض:

في البحث القيم الذي نشره الأستاذ عبد السلام شقور عن القاضي عياض سنة ١٩٨٣م إلمام مجمل بشاعرية القاضي عياض.

أما مصادرنا عن شعر القاضي عياض فهي **التعريف بالقاضي عياض** لولده عبد الله محمد بن عياض (حققه محمد بن شريفة)، **وقلائد العقيان** لابن خاقان، الذي أورد شعرا لعياض غير ما أورده ولده في التعريف. **وأزهار الرياض** للمقري، وبعض كتب عياض نفسه كترتيب المدارك، والشفا والإلماع، ومجاميع مخطوطة بخزائن المغرب (٣٢)أشار إليها الأستاذ شقور في بحثه بأرقامها ومكانها.

وينقسم شعر القاضي عياض من حيث الفنون الرئيسية إلى شعر الغزل أو النسيب. وشعر التشوق إلى قبر الرسول ﷺ، وشعر الإخوانيات، وشعر الحنين والشكوى، و شعر الوصايا والحكم.

ونلاحظ منذ البداية أن شعر النسيب والغزل ربما كان من الفنون التي ضاع منها الكثير، لأن عياضا الفقيه المحدث لم يكن مهتما بأن تروى عنه أشعار تتنافى مع شروط الفقيه المحدث كما يجب أن يمثلها العلماء. كما يلاحظ أن ولده قد كان وعد بجمع شعر والده، غير أن المكتبة العياضية لا تحتفظ أو لا تذكر مجموعا شعريا ينسب للقاضي عياض.

ويحوم الشك حول بعض ما أورده المقري في أزهار الرياض، من شعر القاضي عياض.

أما شعر عياض في التشوق إلى زيارة الرسول، ﷺ، وإلى التحلي بمدحه فمما لا شك فيه أنه حفظ أكثره لكونه مما كان يروى ويتسق مع اهتمامه الخاص بالشخصية النبوية.

وقد زاد في شوقه ولوعته ومعاناته الوجدانية أنه لم يرحل إلى الشرق، ولم يقم بأداء فريضة الحج فيما ثبت عنه، فعوض ذلك بالطواف شعرا حول شخصية الرسول. وتخيل نفسه أمام الروضة النبوية، واستعراض مشاهد الزيارة، وكأنه يروى عن مشاهداته وتجاربه بالفعل، فالشعر بالنسبة لعياض في هذا الموضوع هو شعر التعويض عن الحرمان. ومن قصائده في هذا الموضوع أبيات تدل على هذه الحقيقة:

بشراك بشراك قد لاحت قبابهم   فانزل فقد نلت ما تهوى وتختار
هذا المحصب، هذا الخيف خيف منى   هذي منازلهم، هذي هي الدار
هذا الذي وخدت شوقا له الإبل   هذا الحبيب الذي ما منه لي بدل
هذا الذي ما رأت عين ولا سمعت   أُذن بأكرم من كفيه إن سألوا

فاسم الإشارة ينم عن استحضار المشاهد، وعن استغراق الشاعر في تلك المشاهد وخطابها وكأنه بين أحضانها.

وصدق العاطفة، وحرارتها بادية في هذا التمازج بين الذات وبين مشخصات الوجود النبوي.

وأما شعر عياض في النسيب والغزل والشعر الوجداني فدال كذلك على صدق العاطفة ولكنه غزل عفيف، متزن لماح إلى ما في القلب من وجد وتعلق. و إن ذهب البعض إلى أنه لا يعدو أن يكون شعرا فنيا يدل به الشاعر على مقدرته الفنية.

ويحسن أن نشير هنا إلى أن للفقهاء من العلماء أشعارا ندية العاطفة صادقة اللوعة لم يستطيعوا كتمانها وقد فطرهم الله على الشعر.(٣٣) ومن هذا القبيل شعر الصوفية كأبي بكر الشلبي وابن الفارض ومحيي الدين ابن عربي والششتري والنابلسي والبرعي ومحمد الحراق المغربي.

ومن أروع شعرهم الذي قرأت مقطوعة القاضي المغربي أبي حفص بن عمر.

هم لحظوا لواحظها فهاموا　　　تشرب عقل شاربها المدام
يخاف الناس مقلتها سواها　　　أيذعر قلب حامله الحسام
سما طرفي إليها وهو باك　　　وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدها فأنوح شوقا　　　على الأغصان تنتدب الحمام
وأعقب بينها في الصدر غما　　　إذا غربت ذكاء أتى الظلا

ونذكر في هذا السياق شعر العالم الأندلسي الفقيه النظار الإمام ابن حزم ولِمَ نقول الشعر؟ والإمام قد ألف كتابا في المحبة يعتبر حتى اليوم نسيج وحده في الآداب العالمية، وهو كتاب (طوق الحمامة في الألفة والألاف). ومن الفقهاء الذين جهروا بصبابتهم الفقيه الأندلسي الكبير أبو الوليد الباجي وأبو بكر بن العربي الإشبيلي والقاضي عياض السبتي(٣٤).

ومن شعر القاضي عياض في النسيب قوله :

يا راحلين وبالفؤاد تحملوا أيرى لكم قبل الممات قفول
أما الفؤاد فعندكم أنباؤه ولواعج تنتابه وغليل
فبرى لكم علم بمنتزح الكرى عن جفن صب ليله موصول
أودى بعزمة صبره وإبائه طرف أحم ومبسم مصقول
ما ضركم أو ضنكم بتحية يحيي بها عند الوداع قتيل
إن البخيل بلحظة أو لفظة أو عطفة أو وقفة لبخيل

ومن شعره في الحنين والتشوق إلى سبتة وهو بناحية مراكش :

أقمرية الأدواح بالله طارحي أخا شجن بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة تهيج من برْحي ومن برحائي
لعلك مثلي يا حمام فإنني غريب بدار قد بليت بداء
فكم من فلاة بين دار وسبتة وخرق بعيد الخافقين قواء
تصفق فيها للرياح لواقح كما ضعضعني زفرة الصعداء
يذكرني سح المياه بأرضها دموعا أريقت يوم بنت ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها خمائل أشجار ترف رواء
لعل الذي كان التفرق حكمه سيجمع منا الشمل بعد تنائ

أما نثر عياض و أسلوبه الفني وهو المظهر الثاني لأدبه فمجال دراسة أوسع ويتجلى في لونين : هما اللون الفني في ترسله ومقدمات كتبه وخطبه ، واللون المرسل في تصانيفه وكتبه .

أما اللون الأول فمن الملاحظ أنه لم ينته إلينا جله فضلا عن أن يكون قد انتهى إلينا بكامله ، فخطبه الكثيرة قد ضاعت ، وابنه في التعريف قد أشار إلى كتاب خطبه ، والمترجمون له قالوا إنه لم يكن يخطب إلا من إنشائه . ومنصبه ومشاركاته

وتصدره كانت كلها من دواعي القول والتوجيه والخطابة (٣٥) .

وأما مراسلاته فكثيرة إلى حد أن ولده في التعريف وعد بجمع ترسيله في ديوان يشتمل من كلامه على العجب العجاب الذي اعترف له بالسبق فيه زعماء الكتاب (٣٦) .

فهل وفى الولد بوعده، وأنجز هذا المجموع الذي يكون حينئذ قد ضاع لا محالة، أو لم يف بوعده فظلت الإشارة شاهدة على وفرة الإنتاج لا غير.

وإلى جانب الخطب كانت لعياض مراسلات ورسائل فنية وعلمية وإخوانية لأن شخصيته في قدره وعلمه وعلاقاتها المتعددة برجال عصره لا يمكن أن تقتصر على ما انتهى إلينا من رسائله .

وقد تناول الباحثون بالتحليل فن الترسل عند عياض، وحاولوا استنتاج خصائص كتابته . ومجمل الآراء في هذا التقديم أن عياضا كان يكتب كتابة مرسلة في تصانيفه ومؤلفاته فيتميز بإحكام العبارة ودقة التعبير، وقوة السبك . فبلاغة عياض بلاغة الفكر الذي روض اللغة لمعانيه . أما حين كان عياض يكتب الكتابة الفنية المتكلفة على نحو ما شاع في عصره منذ كان يحذو المولعين بالازدواج والسجع والترصيع والتضمين، وإتيان الاستعارات المتداخلة وألوان البديع المتراكبة . مما نجده في أمثال هذه الفقرات .

وأما مضمون كتبه فأهمه بالنسبة لموضوعنا هو ما يتعلق بالنقد الأدبي واللغوي .

والنقد عند عياض ليس نقد متحصص كما يتبادر إلى الذهن، وإنما هو النقد الذي لا ينفك عن الأديب المتذوق، والكاتب المترسل والعالم المتضلع في اللغة وفقه العربية، وتميز فنون القول .

والمرجع الذي يرجع إليه الباحثون الذي يريدون تناول المنحى النقدي عند عياض هو كتابه (بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد) ويمكن الاستئناس أيضا بما رواه من شعر في بعض كتبه وبما أورده من آراء في تحليل إعجاز القرآن والبلاغة النبوية في كتاب (الشفا) .

ويمكن الجزم بكون عياض كان مطلعا على الكتب النقدية وآراء النقاد السابقين، وأورد أسماء بعضهم في (البغية) وأسماء بعض كتب الأدب والفقه في (الغنية)، كما نجزم بكونه حين أورد تحديد مصطلحات البلاغة في كتاب (البغية) كان يساهم في تعميق ألوان البلاغة وتوسيع مفاهيمها، وتلخيصها .

ويعكس لنا كتاب (البغية) صورة ناقد عربي متمكن من أدوات الفهم والتذوق والتحليل، لنص (حديثي) لم تكن سوى نموذج لثقافة عياض النقدية، كما تعكس لنا صورة ناقد مندمج في نزعة ذلك العصر السائد حول إيثار الأسلوب الفني المثقل بألوان البديع كالطباق والجناس والازدواج والموازنة ولزوم ما لا يلزم، فلا عجب أن نرى عياضا ينزع نفس النزعة في نقده، وتقويمه لفنون القول، ولكنه كان يميز في ذلك كله بين المتكلف والمطبوع، أي بين ما يهدي إليه الطبع وتسوق إليه الموهبة وبين ما يجلبه كد الذهن وإعمال الصناعة لا غير. (٣٧)

ذكرنا في مقدمة هذا المقال أن القاضي عياضا حقق في شخصيته التقاء ثلاثة رموز يعكس كل واحد منها مستوى من مستويات الثقافة في القرن السادس الهجري مشرقا ومغربا، فهل كنا نقصد من وراء هذا الحكم أن تلك الرموز هي مكونات أبعاد الدور الثقافي الذي نهض به في عصره بالنسبة للمغرب أو للغرب الإسلامي؟

لقد كنا نتصور دائما بالنسبة لأعلام الثقافة والفكر في أي عصر من العصور أن الدور الثقافي الذي ينهض به أحد الأعلام يتمثل في حركة تاريخية معينة، أو في فكر يبعث على تلك الحركة التاريخية، فالثقافة التي لا تحرك الواقع أو لا تتحرك مع الواقع تعدّ في نظرنا في حكم العدم. وكذلك يقال عن المثقف، فهو إما متحرك مع مجتمعه، وإما منعزل ساكن لا يؤثر ولا يتأثر - إن أمكن تصور ذلك -، وهو ما يعرف اليوم بالمثقف العضوي، أي المثقف الفاعل المنفعل باعتباره عضوا في بنية اجتماعية.

والعالم من علماء الثقافة الإسلامية في العصور الغابرة كالقاضي عياض كان مثقفا بهذا المعنى الشامل. وهو لكي يحقق هذا الدور كان لا بد من أن يقطع ثلاثة أطوار: ففي الطور الأول وبالنسبة للقاضي عياض تحقق التكوين العلمي، وهو طور تلقيه لحصيلة المعارف التي أخذها من شتى الجهات والعقول والمدارك، أي من خلال الشيوخ والأساتذة والتجارب والاختيارات. وفي الطور الثاني تحقق التمثل لتلك المعارف، فنهض بالتمحيص والتصنيف والتحقيق. وفي الطور الثالث تحول التمثل الثقافي إلى إبداع، وحركة فيض وعطاء، أو إلى حركة توجيه والتزام بموقف، وسط التيارات والحركات المتدافعة داخل مجتمعه. وفي هذه الأطوار الثلاثة تحققت ثلاث حركات.

- **حركة الاستيعاب والتفتح على المعارف والتجارب من شتى المناحي.**
- **حركة التمثل والتأليف للمتفرق والتحقيق للمشتبه.**
- **حركة التفريع على الأصول، والتأصيل للفروع بالفكر أو بالممارسة.**

فهل مثل القاضي عياض هذه الحركات الثلاث، فحقق الدور المطلوب من المثقف العضوي، أم وقف به الأمر عند مرحلة أو طور من تلك الأطوار الأولى لا يعدوه؟

لقد رأينا أن القاضي عياضا تلقى شتى معارف عصره . وتلمذ لشيوخ عصره في المغرب والأندلس . وكان في مقدمة من تلمذ لهم الحسين الصدفي الذي كان بدوره ملتقى المائتي شيخ من شيوخ العلم في عصره في المشرق والمغرب ، كما بين ذلك القاضي عياض نفسه في كتاب (الغنية) ، وهكذا يكون عياض قد حصل على علم غزير وإسناد عال وتوثيق دقيق للمرويات والأسانيد . وتلكم كانت شرائط الثقافة الإسلامية القائمة على المنقولات في المعارف اللغوية والأدبية والدينية .

ورأينا أنه بعد الإياب إلى سبتة مسقط رأسه ومقامه تصدر للإقراء والإفتاء والتأليف . وبذلك حقق حركة التمثل والاستيعاب ، ثم مثل حركة العطاء والتوجيه ، ونشر المعرفة ، بعد أن كون من مختلف ما تلقاه في الحركة الأولى مزيجا خالصا من الثقافة الإسلامية المعمقة .

ثم تجيء الحركة الثالثة في التفريع والتنظير والتأصيل . وأغلب الظن أن القاضي عياضا لم يكن على شاكلة علماء أو بعض علماء المشرق الذين تفتحت عقولهم على حركة المزج بين المنقول والمعقول ، فمضوا بهذه الحركة أو مضت بهم الحركة إلى آمادها البعيدة ، من تعدد المذاهب والمدارك العقلية ، وتشعيب الآراء ، أو كان لهذه الحركة ما كان لها من تفتيت الوحدة الإسلامية المذهبية . نقول إن القاضي عياضا لم يكن على شاكلة هؤلاء العلماء ، لأنه كان يحس بما يعتمل به المناخ السياسي والفكري من تيارات و (إيديولوجيات) مناوئة للوحدة الإسلامية ، محرفة للحقائق الدينية ، فوقف موقفا صلبا تجاه كل هاتيك التحركات المناوئة للمذهب السني .

ولهذا قلنا في صدر هذا المقال إن عياضًا كان يعي معنى الوحدة السياسية

والمذهبية في بلد ناء عن قلب العالم الإسلامي يومئذ. أي بلد يعدّ واجهة أمامية للعالم الإسلامي تجاه أوروبا.

وقد جاء كتابه (الشفا) بمثابة موقف تجاه ا(المهدوية) الشيعية هذه المهدوية التي كانت تسوي تشوية تامة بين الإمام المهدي المنتظر (المعصوم) بالنبي المعصوم حقا بشهادة الوحي.

وجاء كتاب (الشفا) للقاضي عياض بمثابة وضع حد من جانب الفكر السني لتلك الآراء الجانحة التي تخوض في مسألة النبوة من حيث تسوية العقل بالوحي، أو إنزال الوحي بالمنزلة التي يصبح العقل معيارا متحكما فيه، أو التي تسوي معرفيا بين (الولاية) الصوفية و(المهدوية) الشيعية و(التجوهر بالعقل الفعال) عند الفلاسفة من ناحية وبين النبوة من ناحية أخرى.

لقد كان الإمام الغزالي في المشرق بعد عياض قد كافح كل هذه الاتجاهات المناوئة والمتحيفة لحقيقة النبوة، والمستطيلة بالكذب والادعاء على مقام النبوة المحمدية (٣٨) وكذلك نهض بنفس الدور الإمام ابن تيمية. ومعنى ذلك أن علماء الإسلام في المشرق والمغرب قد شعروا بما يتهدد الإسلام من داخله.

فلقد ألف كل من القاضي عياض، والإمام الغزالي، والقاضي عبد الجبار الهمذاني ـ وهم جميعا في عصر واحد ـ كتبا في نفس الاتجاه، وإن تعددت منظوراتهم إلى القضية، الواحدة التي كانت مطروحة بإلحاح، واستغلت الإستقطاب الجماهير الإسلامية حول مشروع سياسي يمسك بزمام السلطة بحجة أو بأخرى.

بل إن القاضي عياضا كان يعيش فترة ظهور المهدي بن تومرت بالمغرب باسم المشروع السياسي نفسه، وهو الرجل الذي أقام دولة الموحدين، وترك خلفه عبد المؤمن أن يديل دولة المرابطين.

ومهما تكن قيمة كتاب (الشفا) للقاضي عياض، تلك القيمة التي عكستها ما استتبعه من روايات لمتونه وشروح وتلخيصات وحواش في شرق العالم الإسلامي ومغربه، ساهم فيها علماء أعلام مثل السيوطي وابن جماعة الكناني المقدسي، وابن مخلوف، وابن مرزوق، وشهاب الدين الخفاجي، والملا علي القاري(٣٩). فإنه يعكس موقفا مذهبيا صارما وتوجها معرفيا واضحا يجعل من النص الشرعي مصدرا أساسيا للمعرفة وأصلا لا يحتمل النزاع متى ثبت بالسند الصحيح. وحيث إن مصدر هذه المعرفة الدينية هو ذات النبي ﷺ، فإن القاضي عياضا كان أول عالم تنبه إلى ما يتعين عمله من حياطة الذات النبوية بكل ما يليق بها من العصمة والتفرد والتميز عن سائر البشر.

ونفس الموقف السني الثابت يقفه عياض في كتابه الضخم (ترتيب المدارك) وذلك حين يعرض لتراجم المالكية، ويتحدث عن مواقفهم من خصومهم في الرأي كالمعتزلة والشيعة، وما امتحن به بعضهم من جانب بعض الأمراء المشايعين لتلك المذاهب. وفي هذا السياق يكشف عن محنة الفكر الإسلامي في ظل بعض السلطات الجائرة خلال فترات مظلمة من تاريخنا كالذي رواه عن محنة الفقهاء المالكية في إفريقية على عهد الشيعة العُبَيْدِيِّين(٤٠).

وهذا الصمود المذهبي هو الذي جعل من شخصية عياض (الشخصية الموقف) أي الشخصية التي أصلت المذهب السني وعمقت أصوله، وجعلت منه اختيارا مذهبيا للمغرب، لم يختلف في شأنه الحاكمون والمحكومون على حد سواء بعد عياض إلا ما ندر. ونظن أن معيار هذا التقويم لدور عياض في تاريخ الفكر المذهبي بالمغرب، يتحقق لو أمكننا أن نتصور تاريخ المغرب المذهبي بغير وجود القاضي عياض في نفس الحقبة من ذلك العصر المليء بالصراع المذهبي في

المغرب الإسلامي فمن المؤكد في ظننا أن التاريخ المذهبي السني للمغرب كان لا بد أن يتأثر وربما كان قد أخذ اتجاها غير الاتجاه الذي أخذه . وهو مجرد احتمال لأننا لا نستطيع تأييده ولا دفعه .

ويبقى على كل حال أن القاضي عياضا كان خير من عرّف بالمغرب لدى علماء المشرق لا عن طريق التصنيف والرحلة وتعدد المريدين الوافدين عليه ، ولكن عن طريق هي أقصر من كل طريق ، ولكنها أشق وأبعد منالا ، وهي قوة الشخصية وقدرتها على جعل الثقافة رسالة اجتماعية ومسؤولية قومية ، وجعل العقيدة قواما للثبات في عالم لا مناص له من التوفيق بين دوافع التغير والثبات .

فقد ظل المغرب منذ عهد عياض قيما على تراث الإسلام حفيظا على مذهبيته المعتدلة . صامدا في موقع يعدّ في اليوم ملتقى الصراع بين الأضداد . ولذلك كان عياض بحق رمزا لكل هذه القيم في عصره وبعد عصره .

●●●

الهوامش

---

(١) ننظر هنا إلى الكتب المقررة في تكوين العالم لعصر عياض ، وبرامج درسه حسب ما يفيدنا إياه كتابه (الغنية) . ومعظمها يتعلق باللغة العربية وعلوم الحديث رواية ودراية ، والفقه على مذهب الإمام مالك ، وعلم الكلام على مذهب الأشعري ، كما كانت أهمية التكوين العلمي تتحدد بعدد الشيوخ حيث يعكس العدد علو الإسناد وسعة الرواية وتحقيق المقابلة والموازنة بين المرويات والنقول .

(٢) هو الكاتب الأندلسي أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي ، كتب رسالة في الإنتصار للأندلس على المغرب ولا سيما في مجال تفوق الأندلس على المغرب أدبيا

حتى عهده . وانظر عنه (نفح الطيب ، ج ٤ / ١٧٧) وتاريخ النقد الأدبي للدكتور إحسان عباس ٥٣٠ . وانظر عن تعصب بعض المؤرخين والباحثين على المرابطين في كتاب (النبوغ المغربي في الأدب العربي) للعلامة المرحوم عبد الله كنون . ج ١ ـ ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) انظر ما ذكره المراكشي في المعجب ، ص ١٦٤ ، واجتمع له (السلطان المرابطي) من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار» .

(٤) انظر نظم الجمان . تحقيق محمود على مكي ، منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط .

(٥) انظر عن مدينة سبتة المغربية وتاريخها الفكري الحضاري مجلة كلية الآداب بتطوان . المجلد الخاص بندوة سبتة ، التاريخ والتراث ١٩٨٩ .

(٦) قام بتحقيق (تنيب المدارك) طائفة من علماء المغرب بإشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب . وظهر منه حتى الآن عشرون جزءا . أما (الإعلام بحدود قواعد الإسلام) فقد طبعته وزارة الشؤون الإسلامية في سلسلة مطبوعاتها . وأما (الشفا) فقد قام بتحقيقه والتعليق عليه الأستاذ على محمد البجاوي ط/ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٤

(٧) الغنية ١٧٧ بتحقيق ماهر زهير جرار دار الغرب الاسلامي .

(٨) الغنية . ص ١١٩

(٩) انظر الغنية ص ١٢٩ والحسين الصدفي بنفسه ملتقى شيوخ في العلوم الإسلامية يناهز عددهم المائتين . ولذلك ألف عياض عند معجم شيوخه .

(١٠) انظر الغنية ص : ١٤٠ وما بعدها عن هؤلاء الشيوخ .

(١١) انظر ما قاله المراكشي في المعجب ص : ٢٧٨ عن إحراق كتب المدونة لسحنون ، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب ، وما شاكلها من كتب الفقهاء المالكية .

(١٢) كتب عن هذا الموقف الدكتور عبد الهادي التازي مقالة في مجلة المناهل المغربية العدد ١٩ ديسمبر ١٩٨٠ بعنوان : عياض بين العلم والسياسة .

(١٤) انظر أزهار الرياض ٣/ ٥٩ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٠٤

(١٤) حققه ماهر زهير جرار . ط/ دار الغرب الإسلامي .

(١٥) الغنية : ص/١٠٦ .

(١٦) انظر الغنية، ص: ١٤٠ .

(١٧) المرجع ، ص١٤٢ ،

(١٨) هو المحدث أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفربري كان أحسن من روى عن البخاري . وانظر عنه فهرسة ابن خير ، ومرآة الجنان ج ٢/ ٢٨٠ وشذرات الذهب ٢٨٦ .

(١٩) هو أبو إسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفي . انظر عنه تذكرة الحفاظ ٢/ ٢٨٦ ومرآة الجنان ٢/ ٢٢٣ وشذرات الذهب ٢/ ٢١٨ .

(٢٠) انظر المقدمة للمشارق . ص ٥/ ٦ وانظر مقالة الدكتورة عائشة عبد الرحمن عن مشارق الأنوار في مجلة (المناهل) العدد الخاص بعياض .

(٢١) التنويه والإشادة ، ص ٢٩ عن مقالة الدكتور يوسف الكتاني في عياض ندوة الإمام مالك (رواة عياض) نشر وزارة الأوقاف ١ / ٢٠٣ .

(٢٢) المقدمة ٤٤٥ / ٤٤٦

(٢٣) المقدمة ٤٤٧ .

(٢٤) الإمام الذي يرجع إليه الفضل في نقل مذهب الإمام مالك ونشره (١٩١) .

(٢٥) إمام في الفقه المالكي دون (المدونة) وهي غير مدونة سحنون توفي سنة (٢٠٤) هـ .

(٢٦) تلقى الفقه عن مالك وروى عن ابن وهب وابن القاسم وتوفي سنة (٢١٦هـ) .

(٢٧) عالم أندلسي أخذ عن كثير من أصحاب مالك ، توفي سنة (٢٣٨هـ) .

(٢٨) فقيه الأندلس وعالمها في عصره (٢٣٨) له عشرات التصانيف . من أهمها كتاب الموضحة في الفقه وتفسير موطأ الإمام مالك وطبقات الفقهاء والتابعين .

(٢٩) قدره ابنه في التعريف في نحو عشرة أجزاء ، وهو ما يزال مخطوطا .

(٣٠) انظر كتاب (الغنية) ، ص ٥٩ .

(٣١) المرجع ٧٩ .

(٣٢) ومما لا شك فيه أن شعر عياض أصابه ضياع وخلط ، فإن ولده أبا عبد الله محمدا كان يقول إن شعر والده في شبابه كان غزيرا ، وأنه جمع ما جمعه في التعريف عن أصحاب والده لا عن والده الذي كان لا يهتم برواية شعره ولا بجمعه . شقور (ص: ٢١٥) .

(٣٣) انظر ما قاله الأستاذ عبد الله كنون في كتابه (أدب الفقهاء) .

(٣٤) المرجع . ص٤٣/ ٥٢ .

(٣٥) قال ولده في التعريف ٨٧ : وخطبه كثيرة مدونة يشتمل عليها مجلد ، قرئت عليه وسمعها أكثر أصحابه وانتسخت . .

(٣٦) التعريف بالقاضي عياض تحقيق محمد بن شريفة ٩٥ .

(٣٧) البغية : ١٩٨/ ١٩٩ .

(٣٨) انظر مقاله (مقدمة معاصرة لكتاب الشفا) د . محمد الكتاني مجلة (المناهل) المغربية . وزارة الشؤون الثقافية . العدد الخاص بالقاضي عياض .

(٣٩) انظر تفصيل ذلك في كتاب (كشف الظنون) لحاجي خليفة ٢/ ٦٣ وما بعدها . وانظر بحث الأستاذ محمد المنوني (كتاب الشفا) من خلال رواته ورواياته بمجلة المناهل المغربية .

(٤٠) انظر (ترتيب المدارك) لعياض نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ٥/ ٦٦ وما بعدها .